بطولات صوفية :

القائد الصوفى الذى هـزم الغـــرب

للأستاذ محمود شلبى

لاحظت وأنا أقرأ سير عظماء الاسلام ، أن هنـاك صفة واحدة هى سر عظمة هؤلاء العظماء ، ولباب شجرة العبقرية الاسلامية .

تلك الصفة الواحدة هى « التصوف » بلغة أهل الحقيقة ، أو الايمان بلغة أهل الشريعة .

ولتجدن أئمة هذا الدين فى كل نواحيه ، الصوفية والذين آمنوا ، ذلك بأن منهم الخلفاء الذين اشـتهروا بالعدل ، والقواد الذين عرفوا بالجـرأة ، والعلماء الذين أثر عنهم الصلابة فى الحق ، والعباد الذين سجل لهم التاريخ التفوق فى العبادة ، فهم الأئمة فى كل ناحية ، البارزون فى كل ميدان .

فالصوفى الحق هو انسان آمن ايمانا صحيحا ، ثم أخـذ يتكامل ايمانه ، ويزداد هدى ، حتى تحول من مؤمن فروض الى مؤمن نوافل « ما تقرب الى عبدى بمثل ما افترضته عليه ، وما يزال عبـدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه .. » .

ومتى كان المؤمن كذلك ، ارتفع الى مقام الامامة ، لا لأنه يسعى ليكون اماما ولـكن لأن ذلك هو الوضع الطبيعى للأمور ، والارادة الماضـية لله سبحانه ، والمـكافأة الربانية المعجلة لأهل الله فى هـذه الدنيا « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

رفعهم الى مقام الامامة لما صبروا على طاعته فى الفروض ، ثم لم يقنعوا بذلك فسارعوا الى زيادة الطاعات بالنوافل ، ثم لم يقفوا عن ذلك ، بل ذهبوا يهدون الناس بأمر الله وعلى شريعة الله .

والامامة هنا امامة فى الدين والدنيا وامتياز فى كل نواحى الحياة .

ولكى ندرك ذلك علينا أن نمد أبصارنا فوق الصدر الأول للاسـلام ، ولسوف نجد أن الأمة الاسلامية فى شبابها ، كانت أعظم أمة فى كل شىء .

وكانت أقوى أمة في الأرض ، وآية ذلك أنها كانت تشمل العالم القديم المعمور وقتئذ كله ، اللهم الا بعض دويلات أوروبا . أما المساحة من المحيط الهندى الى المحيط الأطلسى ، ومن جنوب أوروبا الى أواسط أفريقيا ، فهذا كله عالم اسلامى ، وامبراطورية واحدة ، يحكمها أمير المؤمنين ، وخليفة رسول الله .

وكانت هذه الأمة خير أمة فعلا بشهادة الله سبحانه « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ... » . كان مصدر الخيرية فى تلك الأمة ، وسر عظمتها التى شهد بها الله فى كتابه ، وشهد بها التاريخ فى سطوره ، أنها تؤمن بالله ، أنها أمة متصوفة ، يحكمها خليفة صوفى ، أمثال أبى بكر ، وعمر وعثمان ، وعلى ، وعمر بن عبد العزيز .

واذا نظرت الى تلك الأمة ولماذا سادت العالم ، رأيت ايمانا فى عوامها وتصوفا فى قادتها وخواصها .

فاذا استعرضت مواقف أمرائها الرائعة التى عطرت التاريخ وجدت سرها هو التصوف .

واذا راعك عظمة علمائها وروعة مواقفهم من الأمراء ، فاعلم أن سر ذلك كله هو نفحة التصوف السحرية فى قلوبهم .

والقاعدة العامة التى لا تختلف ، أن سر عظمة هذه الأمة هو التصوف .

وان سر عظمة أبطال هذه الأمة هو التصوف .

وأنه اذا راعتك بطولة ما من بطولات الاسلام ففتش عن التصوف فى ثناياها .

واليك لمحات من تصوف شخصية اسلامية ، قهرت الغرب ، وفتحت الشرق ، فهى بذلك هزمت الدنيا بأكملها .

ذلك هو صلاح الدين الأيوبى ، القائد الصوفى .

تحدث الناس عن كل شىء من نواحى هذه الشخصية عن فتوحاته ، عن بطولاته ، عن سماحته ، عن كرمه ، ونسوا شيئا واحدا هاما ، هو الأصل الأصيل والنبع الدفين لشخصية البطل .

ذلك هو صوفية صلاح الدين .

فهل كان صلاح الدين صوفيا حقا أم أن هذا زخرف القول غرورا ؟.

سأروى لك بعض المواقف للرجل ، لتحكم بعدها على شخصيته ومدى صلتها بالتصوف .

عندما مات الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين فى مصر ، صادر صلاح الدين رئيس وزراء مصر قصور الخلافة وأموال الفاطميين ، ووزعها على من شاء من الحاكمين والمحكومين بمصر ، وحرمها على نفسه ، واكتفى بالاقامة فى دار الوزارة التى كان يشغلها من قبل ، فهل يفعل ذلك الا من كان فى قلبه شىء من زهد صوفى ؟

ولى صلاح الدين الوزارة فى مصر فى سن الثانية والثلاثين ومات فى سن السابعة والخمسين . وقضى الرجل ثلاثين عاما أو يزيد حاكما مطاعا ، تدرج فيها من ضابط صغير فى حملة أسد الدين شيركوه التى جاءت لنجدة مصر من السقوط فى أيدى الصليبيين ، الى رئيس الوزارة فى مصر ، ثم جاهد وجاهد حتى ضم لملكه اليمن وشمال أفريقيا وسورية والحجاز والعراق ، كل ذلك بالحرب والجهاد ، فاذا تم له توحيد المسلمين ، قادهم جميعا وحارب بهم الصليبيين ، حتى انتصر عليهم فى موقعة حطين المشهورة ، وأخيرا كلل نصره بفتح بيت المقدس واعادته الى الدولة الاسلامية .

وقضى الرجل هذه الثلاثين عاما فى غزو دائم ، لم يهدء لحظة واحدة ، فهو دائما يقاتل ودائما يحارب ، ودائما يرغب فى الموت والشهادة . فهل يحدث هذا الا من رجل فى قلبه نفحات التصوف ؟.. وهل يقبل على الموت بسهولة فى سبيل الله الا من ملىء قلبه بنور التصوف ؟..

والآية المشتقة من ذلك أن الرجل حارب الدنيا بأكملها وانتصر على الدنيا بأكملها . وتفصيل ذلك أنه ما فتىء يحارب العالم الاسلامى فى الشرق حتى انضوى تحت لوائه ، ثم حارب العالم الغربى المتجمع فى الامارات اللاتينية بالشرق حتى انهزم أمام ارادته ، فاذا علم أن العالم آنئذ لم يكن سوى هذين المعسكرين ، المسلمون فى الشرق ، والنصارى فى الغرب ، أدركنا أن الرجل

حارب العالم كله ، وانتصر على العالم كله . فهل يستطيع ذلك الا من كان متصوفا .

واليك أقصوصة من سيرة البطل ، تكشف عن روحه المتصوفة ، وقلبه الخالص لله .

« لما رجع السلطان صلاح الدين من احدى غزواته الى دمشق فى محرم سنة ٥٨٤ هـ - ١١٨٨ م ، وجد الصفى بن الفايض وكيل الخزانة قد بنى له دارا بالقلعة هائلة مطلة على الشرف القبلى ، فغضب عليه وعزله وقال : انا لم نخلق للمقام بدمشق ولا بغيرها من البلاد ، وانما خلقنا لعبادة الله عز وجل والجهاد فى سبيله ، وهذا الذى عملته مما يثبط النفوس ويقعدها عما خلقت له » .

ان هذه السطور تكشف حقيقة خباياه ، وتبين الى أى مدى كان الرجل يحب الله عز وجل .

لقد كان صلاح الدين عاليا جدا فى ذلك الموقف بقدر ما كان ذلك الذى بنى له دارا بالقلعة تافها جدا ، وشتان ما بين النفسيتين . ذلك يحب عبادة الله والجهاد فى سبيل الله ، وذلك مشغول بالدنيا يبنى القصور ويركن اليها . وفرق ما بين الاثنين كفرق ما بين السماء والأرض .

وأروع من ذلك كله ، أنه فارق الدنيا ولم يترك مالا يورث أو ثروة تقتسم .

فقد ثبت أنه مات ولم يترك فى خزانته من الذهب سوى جرام واحد أى دينار واحد . ولم يترك دارا ولا عقارا ولا مزرعة ولا بستانا ولا شيئا من أنواع الأملاك .

فاذا كان الصوفى هو الرجل الذى يزهد فى الدنيا ، فصلاح الدين هو الزاهد عن اقتدار ، كان يملك نصف العالم ويهدد النصف الآخر ، ثم زهد فى ذلك كله ، وهذا هو التصوف الصحيح ، تصوف القادرين لا تصوف العاجزين .

وأخرى تتلألأ بأخلاق صلاح الدين الصوفية .

« لما خرج عماد الدين الى صلاح الدين ، وقد عمل له دعوة احتفل فيها به ، فبينما هم فى سرور ، اذ جاء انسان فأسر الى صلاح الدين بموت أخيه ، فلم يظهر هلعا ولا جزعا ، وأمر بتجهيزه سرا . ولم يعلم عماد الدين ومن معه فى الدعوة ، واحتمل الحزن وحده ، لئلا ينكد ما هم فيه . وكان هذا من الصبر الجميل » .

ومن يقدر على هذا الا من كان قلبه أسس على التصوف ؟.

واليك جملة من أخلاقه ، التى تفيض بالصوفية ، كما رواها العلامة ابن كثير فى البداية والنهاية .

« .. كان متقللا فى ملبسه ومأكله ، ومركبه ، وكان لا يلبس الا القطن والكتان والصوف ، ولا يعرف أنه تخطى الى مكروه ، ولا سيما بعد أن أنعم الله عليه بالملك . بل كان همه الأكبر ، ومقصده الأعظم نصرة الاسلام ، وكسر أعدائه اللئام . وكان مواظبا على الصلوات فى أوقاتها فى الجماعة . يقال انه لم تفته الجماعة فى صلاة قبل وفاته بدهر طويل . حتى ولا فى مرض موته . وكان يحب سماع القرآن والحديث والعلم . ويواظب على سماع الحديث ، حتى أنه يسمع فى بعض مصافه جزء وهو بين الصفين . وكان رقيق القلب ، سريع الدمعة عند سماع الحديث . وكان سخيا حييا ضحوك الوجه كثير البشر ، لا يتضجر من خير يفعله ، شديد المصابرة على الخيرات والطاعات » .

والآن ... هل كان صلاح الدين الأيوبى صوفيا ؟

نعم وانه لمن أئمة التصوف وأعلامه ؟

محمود شلبى